**المحاضرة رقم (4):**

**الرتبة في الجملة العربية**

**تعريف الرتبة:**

**1- لغة:**

جاء في المعاجم العربية أنّ "الرتبة" مشتقة من الفعل الثلاثي " ر، ت ، ب " يقال: رَتَّبَ الشَّيء، يرتب، رتوبا، وتَرَتَّبَ ، ثبت قلم يتحرك، والمرتبة: المنزلة الرفيعة أراد بها الغزو والحجج ونحوهما من العبادات الشاقة ([[1]](#footnote-2)).

والرتب الصخور المتقاربة ببعضها أرفع من بعض واحدتها رُتبة ، رتب الشيء ثبت ودام وله عز راتب، فالرتبة هنا الثُّبوت والاستقرار([[2]](#footnote-3)).

هذا يعني أن الرُّتبـة لغـة هي: الموضع والمنزلة، وهذا المعنى اللغوي على صلة بالمعني النَّحوي المراد سوقه في هذا البحث

2**-اصطلاحا :**

لقد عرف نحاتنا دور الرتبة في الجملة، ولكنهم لم يعالجوها في مبحث مستقل بل توزعت على جميع أبواب النحو([[3]](#footnote-4)). ولعل فهم "ابن جني" لدور الرتبة هو الذي أملى عليه أن يقول:« ولا يجوز تقديم الصلة، ولاشيء منهـا علـى الموصـول، ولا الصفة على الموصوف، ولا المبدل على المبدل منه، ولا عطف البيان على المعطوف عليه، والعطف الذي هو نسق على المعطوف عليه...؛ ولا يجوز تقديم المضاف إليه على المضاف، ولاشي مما اتصل به، ولا يجوز تقديم الجواب على المجاب شرطا كان، أو قسما

أو غيرهما"([[4]](#footnote-5)) ويتجلى مفهوم الرتبة أكثر فيما ذهب إليه "الجرجاني" (ت471 هـ) إثر تعريفه للنظام باعتباره ذاته الترتيب إذ يقول: " وأعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"([[5]](#footnote-6)). فالنظم عنده بحسب المعاني والأغراض، والتقديم والتأخير عنده يـأتي على هذا الأساس وقد علق "تمام حسان" على ذلك بقوله: " أميل إلى الاعتقاد أن عبد القاهر حين صاغ اصطلاحه " الترتيب" قصد به شيئين أولهما ما يدرسه النحاة تحت عنوان "الرتبة" وثانيا ما يدرسه البلاغيون تحت عنوان "التقديم والتأخير" ولكن دراسة التقديم والتأخير في البلاغة دراسة الأسلوب التركيب لا التركيب نفسه؛ أي أنها دراسة تتم في نطاقين: أحدهما، مجال حرية الرتبة حرية مطلقة، والآخر مجال الرتبة غير المحفوظة، وإذا فلا يتناول التقديم والتأخير البلاغي ما يسمى في النحو بالرتبة المحفوظة، لأن هذه الرتبة المحفوظة لـو اختلت لاختل التركيب باختلالها، ومن هنا تكون الرتبة المحفوظة قرينة لفظية تحدد معنى الأبواب المرتبة بحسبها "([[6]](#footnote-7))

ونخلـص مـن ذلـك إلـى أن المقصـود بالرتبـة، هو موقع الكلمـة المعلـوم بالنسبة لصاحبتها، فكان أن تأتي سابقة أو لاحقة، إذ أنها " الموقع الذكرى لكلمة في جملتها"([[7]](#footnote-8)). فهي قرينة لفظية وعلاقة بين جزأين مرتبين من أجزاء السياق يدل موقع كل منهما على الآخر على معناه.

كما تأتي على معنى الترتيب عند "الجرجاني" يعرفها بقوله:" جعل الأشياء الكثيرة بحيث يطلق عليها اسم واحد، ويكون لبعض أجزائه نسبة إلى البعض بالتقدم والتأخر"([[8]](#footnote-9))

وهذه الأشياء الكثيرة هي عناصر الجملة، والاسم الواحد ليس إلا الجملة ذات الأركان المسندة إلى بعضها تقديما وتأخيرا.

**الرتبة من وجهـة نظر النحاة والبلاغيين:**

لقد تطرق النحاة والبلاغيون إلى قضية الرتبة، ويعتبر "سيبويه" أول من طرق سر هذا اللون البلاغي وأثرى به الكثير من المباحث البلاغية، إذ يقول في صدر كتـابه مبديا رأيـه فـي التقديم والتأخير، بأنّه أسلوب فصيح وغرض بلاغي، وسر من أسرار التعبير يكسـب جمالا وتأثيرا : " فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى لفظ، كما جرى في الأول، وذلك قولك: (ضرب زيد عبد الله)، لأنك إنما أردت به مؤخرا ما أردت به مقدما، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخرا في اللفظ، فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدما، وهو عربي جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيائه أهم لهم وهم ببيانه أعنى وإن كان جميعا يهمانهم ويعنيانهم "([[9]](#footnote-10)). ونراه يلاحظ التقديم في أبواب كثيرة من أبـواب النحو، وهو لا يرى أن البلاغة في التقديم أو التأخير سببا دائما في الحسن، بل قد تأتي في موضع القبح رغـم كـون الكـلام مستقيما فيـه نـقـص مـن جـانـب النـحـو، إذ يقـول فـي هـذا الموضع: " ويحتملون قبح الكلام، حتى يضعوه في غير موضعه، لأنه مستقيم ليس فيه نقص فمن ذلك قول عمرو بن أبي ربيعة:

صددت فاطوّلت الصدود وقلّما وصال على طول الصدود يدوم ".([[10]](#footnote-11))

إذن، فالتقديم والتأخير عند "سيبويه"، كثيرا مـا يـأتي للعناية والاهتمام، وأحيانا للتأكيد والتنبيه، وأحيانا أخـرى لغير علة بلاغية؛ بل ربما كان سببا في قبح الكلام وسوء الترَّكيب.

وقد نهج "ابن جني" نهج أستاذه "أبي علي الفارسي"، إذ يقول: "إنّ التقديم لم يأت للعناية أو الاهتمام أو لغرض آخر"([[11]](#footnote-12))، وهو بهذا لا يوافق "سيبويه"ما ذهب إليه.

وعن السّهيلي (ت 581 هـ) الذي يأخذ نص "سيبويه" معلقا عليه ناقلا رأي "ابن في ذلك إذ يقول: " وهو كلام مجمل، يحتاج إلى بسط وتبيين، فيقال: "متى أحد القيم" الشيئين أحق بالتقدم ويكون المتكلم ببيانه أعنى "([[12]](#footnote-13)) .

وهو بهذا التعليق وذلك التساؤل الذي أراد به الإفصاح عن معني في باطن الشاعر لم يفصح عنه ولم يوضحه، فقال في بيان هذا الأصل " والجواب أن هذا الأصل يجب الاعتناء به؛ لعظم منفعته في كتابه وحديث رسوله، إذ لابد من الوقوف على الحكمة من تقديم ما قدم وتأخير ما آخر"([[13]](#footnote-14)). ويقول أيضا:« إنما تقدم من الكلمة فتقدمه في اللسان على حسب تقدم المعاني في الجنان "([[14]](#footnote-15)) .

أمّا "السّكاكي" (ت 626 هـ) الذي قعد للبلاغة، وأرسى أصولها، وصنّف أبوابها وفق نظـام الشرح والتعليل، فإنـّه أخـذ بمـا جـاء بـه "سيبويه" في مسألة التقديم ويقول في هذا النطاق :" والحالة المقتضية \* للنوع الثالث، هي كون العناية بما تقدم أتم، وإيراده في الذكر أهم، والعناية التامة بتقديم ما يقدم، والاهتمام بشأنه نوعان: أحدهما أن يكون أصل الكلام في ذلك، هو التقديم ولا يكون في مقتضى الحـال مـا يـدع إلى العدول عنـه، كالمبتـدأ أو المعرف، فإن أصله التقديم على الخبر نحو: (زيد عارف)، وكذا الحال المعرف فاصله التقديم على الحال نحو: (جاء زید راكبا) .....؛ وثانيهما، أن تكون العناية بتقديمـه والاهتمام بشأنه، لكونه في نفسه نصب عينيك، وأن التفات الخاطر إليه في التزايد "([[15]](#footnote-16)).

غير أنّ ابن الأثير ( ت637 هـ) يرجع سبب أو أسباب التقديم في رأيه إلى قضية الترتيـب ضمن السياق إذ يقول :" هذا الضـرب الـذي يختص لدرجـة التقدم فـي الـذكر الاختصاصية ممّا يوجب لم ذلك - هذا الضـرب يتمثل- كما يبدوا من تأمل تلك النماذج لديهم - في الترتيب من غير دلالته، في انصباب الغرض نحوه أو زيادة الاهتمام به أكثر من سواء في السياق الذي يتقدم فيه"([[16]](#footnote-17)).

ولا يفوتنـا هنـا القـول أنَّ قضية " التقديم والتأخير "مـن أبرز مـا كـتـب "ابـن القيـم" (ت 751 هـ) في هذا الصدد متناولاً إيّاها من وجوه ثلاثة:

أولها متعرضا فيها لذكر المعنى الذي أتى من أجله " التقديم والتأخير " والغرض الذي أراده العلماء من وضع ألفاظهم مستفهما بعدها في كونه مجازا أم لا من حيث تقديم، ونقل كل واحد منهما على رتبته وحقه لينتهي في الأخير إلى ذكر أقسـامه "([[17]](#footnote-18)) مستشهدا في كل ذلك على ما يقول بكثير من اللطائف البلاغية و الاستشهادات الفقهية التي تنم كلها عن حاسة بلاغية، وذوق لغوي سليم.

ننتهي إلى القول على إثر هذا الغرض إلى أنّ القرار الذي يجمع عليه البلاغيـون والنحويون فـي كـون أنّ تقديم أيّ عنصر من عناصر الجملة؛ إنمّـا يكـون للاهتمام بذكره والعناية به، أو لتخصيصه دون سواه، مما يمكن أن يقع موقعه، وعلى هذا فتقديم جزء من الكلام أو تأخيره، لا يرد اعتباطيـا فـي نظـم الكـلام ، وتأليفه إنمّـا يكـون مقصـودا يقتضيه غرض بلاغي أو داع من دواعيه. وهكذا قد تخرج الجملة، عن نمطها التركيبي النحـوي ، وذلك بأن تتبادل عناصرها المواقع فيما بينها فيتقدم ماحقه التأخير ، ويتأخّر ماحقّه التقديم.

**نص التّطبيق:**

تحليل نصّ من كتاب (اللّغة العربيّة معناها ومبناها) لتمّام حسان.

**النّص:** قال تمّام حسان في كتابه (اللّغة العربيّة معناها ومبناها): "ولكن دراسة التّقديم والتّأخير في البلاغة دراسة لأسلوب التّركيب لا للتّركيب نفسه؛ أي أنّها دراسة تتمّ في نطاقين؛ أحدهما مجال حرّية الرّتبة حرّية مطلقة، والآخر مجال الرّتبة غير المحفوظة، وإذا فلا يتناول التّقديم والتّأخير البلاغيّ ما يسمى في النّحو باسم الرّتبة المحفوظة؛ لأنّ هذه الرّتبة المحفوظة لو اختلت لاختلّ التّركيب باختلالها، ومن هنا تكون الرّتبة المحفوظة قرينة لفظيّة تحدّد معنى الأبواب المرتّبة بحسبها. ومن الرّتب المحفوظة في التّركيب العربيّ أنْ يتقدّم الموصول على الصّلة، والموصوف على الصّفة ويتأخّر البيان عن المبيَّن، والمعطوف بالنّسق عن المعطوف عليه، والتّوكيد عن المؤكَّد، والبدل عن المُبْدل، والتّمييز عن الفعل ونحوه، وصدارة الأدوات في أساليب الشّرط، والاستفهام، والعرض والتّحضيض ونحوها، وهذه الرّتبة (صدارة الأدوات) هي الّتي دعت النّحاة إلى صوغ عبارتهم الشّهيرة (لا يعمل ما بعدها فيما قبلها). ومن الرّتب المحفوظة أيضا، تقدّم حرف الجرّ على المجرور، وحرف العطف على المعطوف، وأداة الاستثناء على المستثنى، وحرف القسم على المُقسَم به، وواو المعيّة على المفعول معه، والمضاف على المضاف إليه، والفعل على الفاعل أو نائب الفاعل، وفعل الشّرط على جوابه. ومن الرّتب غير المحفوظة في النّّحو، رتبة المبتدأ والخبر، ورتبة الفاعل والمفعول به، ورتبة الضّمير والمرجع، ورتبة الفاعل والتّمييز بعد نِعْمَ، ورتبة الحال والفعل المتصرّف، ورتبة المفعول به والفعل."

**تمام حسّان، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص207.**

**السّؤال-** حلّل النّصّ مبيّنا فيه أنواع الرّتبة في المركّبات اللّغويّة، مع التّمثيل لكلّ نوع منها؟

1. - ابن منظور، لسان العرب، 1/409 . [↑](#footnote-ref-2)
2. - الزمخشري، أساس البلاغة، ط1، 1998، 1/334-335 . [↑](#footnote-ref-3)
3. - محمد حماسة عبد اللطيف، الضرورة الشعرية في النحو العربي، مكتبة دار العلوم، القاهرة، من 415. [↑](#footnote-ref-4)
4. - ابن جني ، الخصائص، ج2،ص 385 [↑](#footnote-ref-5)
5. - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، تح محمد التنوجي، دار الكتاب العـربي، بيروت، ط2، 1997 ، ص 77. [↑](#footnote-ref-6)
6. - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 207 . [↑](#footnote-ref-7)
7. -إميل بديع يعقوب، موسوعة النحو والصرف والإعراب، دار العلم للملايين، بيروت، ط4 ، 1998، ص385 . [↑](#footnote-ref-8)
8. - الشريف الجرجاني ، التعريفات ، ص55 . [↑](#footnote-ref-9)
9. - سیبویه، الكتاب،ج1،ص34. [↑](#footnote-ref-10)
10. - المرجع نفسه، ج1، ص35 . [↑](#footnote-ref-11)
11. - ابن جني، الخصائص،ج2، ص218 . [↑](#footnote-ref-12)
12. - ينظر: ابن القيم، بدائع الفوائد، إدارة الطباعة المنيرة، القاهرة، ج1، ص64. [↑](#footnote-ref-13)
13. - السهيلي (أبو القاسم)، أمالي السهيلي، تحقيق: محمد إبراهيم البناء مطبعة السعادة ،القاهرة ، ط1 ، 1970، ص 65. [↑](#footnote-ref-14)
14. - عبد الفتاح لاشين: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، دار الرائد العربي، بيروت ، ط1 ، 1983 ، ص 100 .

    \* الفعل وما يتعلق به من اعتبارات مجموعهـا راجع إلى " الترك والإثبـات والإظهار و التقديم والتأخير ". ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 97. [↑](#footnote-ref-15)
15. - السكاكي، مفتاح العلوم، ص 102. [↑](#footnote-ref-16)
16. - ابن الأثير، المثل السائر، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار النهضة، القاهرة، 1973، ص 51. [↑](#footnote-ref-17)
17. - ينظر: أحمد ماهر البقري، ابن القيم اللغوي، كلية الآداب ، جامعة المنيا، 1989 ، ص 185 . [↑](#footnote-ref-18)